أحاديث إصلاح القلوب

(٤٤)

ذمُّ اليأس والقنوط

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد:

فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْكَبَائِرُ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**»(١). رواه البزَّار.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنِطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ**»(٢). رواه مسلم.

اليأس من روح الله والقنوط من رحمته جلَّ في علاه وصفان موبِقان جاءت الشَّريعة بذمِّهما والتَّحذير منهما وبيان خطورتهما، إذا سيطرا على

---

(١) رواه البزَّار (١٠٦ كشف)، وحسَّنه الألبانِيُّ في صحيح الجامع (٤٦٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٥).

القلوب أهلكاها، وإذا ولجا إلى النُّفوس أعطباها، وهما معدودان في كبائر الذُّنوب وعظائم الآثام. قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

ومنشأ القنوط واليأس؛ الجهل بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وبكماله سبحانه في أسمائه وصفاته، وأنَّه جلَّ وعلا عليمٌ، أحاط بكلِّ شيء علمًا، قديرٌ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، توَّابٌ، رحيمٌ، يبسط يده باللَّيل ليتوب مسيءُ النَّهار، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيءُ اللَّيل، كريمٌ جواد، يمينُه ملأى لا يغيضها نفقةٌ سحَّاءُ اللَّيل والنَّهار، غفورٌ غفَّار، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره، حييٌّ محسن يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردَّهما صفرا، إلى غير ذلك من أسمائه الحسنى وصفاته العليا المقتضية لآثارها من العبوديَّة لله وكمال الثِّقة به وحُسن الالتجاء إليه وقوَّة التَّوكُّل عليه وشدَّة الطَّمع فيما عنده دون إياسٍ أو قنوط، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول في الحديث القدسيِّ: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي**»(١)، ويقول في الحديث الآخر: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ؛ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ؛ فَاسْتَكْسُونِي**

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ»[(١)]. ويقول جَلَّوَعَلَا في الحديث القدسيِّ الآخر: «**يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**»[(٢)]. فلِمَ الإياس ولم القنوط!! والله تَبَارَكَوَتَعَالَى يقول: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف:١٥٦].

ومن علِم أنَّ الأمور كلَّها بتدبير الله وتسخيره جلَّ في علاه، وأنَّها ماضيةٌ بما قدَّره وقضاه، وأنَّ ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنَّ ما أصاب العبد لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وآمن بذلك حقًّا استراح قلبه ولم يضطرب، واطمأنَّ فؤاده ولم ينزعج، وهل اضطراب القلب يردُّ أمرًا مقدورًا؟ وهل انزعاجه يجلب أمرًا غير مقدَّر؟! اللَّهُمَّ إلَّا الآلامَ والغُصصَ والحسرات الَّتِي تؤذي القلوبَ وتُضعِف إيمانَها وتوهِّي من صلتها بالله تَبَارَكَوَتَعَالَى.

ولهذا جاء دعاءُ الهمِّ والحَزَنِ رادًّا العبدَ المهمومَ المحزون إلى هذا

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٤٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

الأصل المتين، روى الإمام أحمد عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا، قَالَ: فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا**»(١).

ومَن كان إياسه وقنوطه بسبب كثرة ذنوبه وتعدُّد خطاياه فليتأمَّل كثيرًا في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزُّمر:٥٣]، وهي أرجى آيةٍ في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يتعاظمه ذنبٌ أن يغفره ولا حاجةٌ يُسألها أن يعطيها جلَّ في علاه، وهو سبحانه أجود مَن سُئِل، وأوسع مَن أعطى، وأرحم مَن استرحم، وأكرم مَن قُصد، وأعزُّ مَن التجيء إليه، وأكفى مَن تُوكِّل عليه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها، ولهذا قيل في حدِّ الرَّجاء هو النَّظر إلى سعة رحمة الله.

---

(١) رواه أحمد (٣٧١٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب (١٨٢٢).

والواجب على العبد في هذا المقام أن يجاهد نفسه على الطَّاعة، وأن يحرص على مباعدتها عن العصيان، غير مستسلمٍ ليأسٍ أو قنوط، بل يكون مجاهدًا نفسه على طاعة الله، عاملًا على نيل رضاه جلَّ في علاه، وليتأمَّل في حاله مع مصالحه الدُّنيويَّة ومبتغياته من مُتع الحياة، أليس يتعامل معها دون إياسٍ أو قنوط؟ فها هو الجائع لا يستسلم لجوعه، والعطشانُ يبحث عمَّا يروي ظمأه، ومن اشتدت عليه حرارة الشمس تتطلب لنفسه ظلا إلى غير ذلك من مصالح الدُّنيا وحاجاتها، فلِمَ الاستسلام للذُّنوب؟ لِـمَ لا تُدفع العقوبة الأخرويَّة بالتَّوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ والإقبال عليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؟ وإذا كان العبد يتوقَّى كثيرًا من الأطعمة خوف مضرَّتها، لِـمَ لا يتَّقِ الذُّنوب خوف معرَّتها؟ أليس هو قادم على الله، ومؤاخذ على ما قدَّم في هذه الحياة؟! فكم يحتمي الإنسان في هذه الحياة الدُّنيا من أمور يخشى أن تضرَّ بدنَه أو تؤثِّرَ على صحَّته، ومع ذلك لا يحتمي من أمور تفضي به إلى عقاب الله وتؤول به إلى عذابه.

قال ابن شبرمة: «عجبتُ لِمَن يحتمي من الطَّيِّبات مخافة الدَّاء، كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النَّار»[(١)].

وقال حمَّاد بن زيد: «عجبتُ عمَّن يحتمي من الأطعمة لمضرَّاتها، كيف

(١) انظر: أدب الدُّنيا والدِّين للماورديِّ (ص٩٧).

لا يحتمي من الذُّنوب لمعرَّتها»[١].

ولهذا وجب على المسلم أن يكون ناصحًا لنفسه، مقبلًا على ربِّه، غير مستسلمٍ ليأسٍ أو قنوط، ولا متماديًا في تأخيرٍ أو تسويف. والكيِّس من دان نفسه وعمِل لما بعد الموت، والعاجز من أتْبع نفسه هواها وتمنَّى على الله الأماني.

ولا يعني عدم القنوط والبُعد عن الإياس تمادي المرء في الذُّنوب والخطايا والآثام اتِّكالًا على سعة الرَّحمة وعِظم المنِّ والغفران، قال الإمام البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الصَّحيح: «كَانَ العَلَاءُ بْنُ زِيَادٍ يُذَكِّرُ النَّارَ، فَقَالَ رَجُلٌ: لِمَ تُقَنِّطِ النَّاسَ؟ قَالَ: وَأَنَا أَقْدِرُ أَنْ أُقَنِّطَ النَّاسَ! وَاللهُ عَزَّوَجَلَّ يَقُولُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر:٥٣]، وَيَقُولُ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٣]، وَلَكِنَّكُمْ تُحِبُّونَ أَنْ تُبَشَّرُوا بِالْجَنَّةِ عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِكُمْ، وَإِنَّمَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا ﷺ مُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ لِمَنْ أَطَاعَهُ، وَمُنْذِرًا بِالنَّارِ مَنْ عَصَاهُ»[٢].

ومن عظيم ما يُذكَّرُ به في هذا المقام قولُ الخليفةِ الرَّاشد عليٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

---

(١) انظر: أدب الدُّنيا والدِّين للماورديِّ (ص١٠٣).

(٢) انظر: صحيح البخاريِّ (٦/ ١٢٦).

«لَا يَرْجُو عَبْدٌ إِلَّا رَبَّهُ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا ذَنبَه»[١]، فعلى هذين الأمرين مدارُ النَّجاة والسَّعادة والفلاح في الدُّنيا والآخرة؛ والرَّجاء والخوف عملان قلبيَّان لا يطَّلع عليهما ولا يعلم بهما إلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ العليم بما في الصُّدور، الَّذِي أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأحصى كلَّ شيء عددًا.

والرَّجاء إنَّما يكون للخير فيما يؤمِّله ويطمع فيه العبد من خيرات الدُّنيا والآخرة، وكلُّ ذلك إنَّما هو بيد الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّه لا يأتي بالحسنات إلَّا الله ولا يصرف السَّيِّئات إلَّا هو جلَّ في علاه، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر:٢]. ولهذا وجب على العبد في كلِّ رجائه أن يكون معلِّقًا قلبه بالله؛ فلا يرجو إلَّا الله، ولا يطمع في نوالٍ في الدُّنيا والآخرة إلَّا من الله، فإنَّ الخير بيده وحده جلَّ في علاه، لا يُعَلِّق قلبه ولا رجاءه لا في نفسه ولا في ذكائه ولا في فهمه ولا قدرته ولا في أيِّ أحد من الخلق، وإنَّما يُعَلِّق رجاءه بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا يكون ذلك منه مجرَّد دعوى، فإنَّ من اليسير على كلِّ لسانٍ أن يقول: «ما أرجو إلَّا ما عند الله»، لكنَّ الشَّأنَ في تحقيق ذلك عقيدةً وإيمانًا في القلب تثمر ثقةً بالله، وحُسنَ توكُّلٍ عليه، وجِدًّا في الإقبال على طاعته ونيل رضاه؛ فهذا هو

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٧٥).

المطلوب من العبد الصَّادق في إيمانه الصَّادق في رجائه.

والخوف يكون من الشُّرور والأخطار والعقوبات، وموجبها ذنوبُ العباد وخطاياهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت:٤٠] وقال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح:٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشُّورى:٣٠] أي: بسبب ما كسبت أيديكم، ولهذا لا يخافنَّ عبد إلَّا ذنبه، فإنَّ ذنوب العباد هي الَّتِي من وراء حصول الشُّرور والعواقب الوخيمة والأضرار الأليمة في الدُّنيا والآخرة.

وعندما يكون العبد بهذه الصِّفة؛ لا يرجو إلَّا الله ولا يخاف إلَّا من ذنوبه؛ فإنَّ حياته كلَّها تستقيم على الطَّاعة وحُسن العمل والبُعد عن الذُّنوب وتحقيق التَّوحيد لله جلَّ في علاه. وليحذر العبد في هذا المقام أن يكون حظُّه من ذلك مجرَّدَ القول والدَّعوى، وقد يقع في شيء من ذلك من حيث يشعر أو لا يشعر. روى الإمام أحمد في كتابه الزُّهد عن معاوية بن قُرَّة قال: «دخلتُ على مسلم بن يسار فقلت له: ما عندي من كبير عمل إلَّا أنِّي أرجو الله عَزَّوَجَلَّ وأخاف منه»، فقال: «ما شاء الله، مَن خاف من شيء حذر منه، ومَن رجا شيئًا طلبه، وما أدري ما حسْب خوف عبدٍ عرَضَتْ له شهوة فلم يدعها لما يخاف؟ أو ابتلي ببلاءٍ فلم يصبر عليه لما يرجو؟» قال معاوية: «فإذا أنا

قد زكَّيت نفسي وأنا لا أعلم»[١].

نعم لنجاهد أنفسنا حقيقةً بيننا وبين الله في إصلاح قلوبنا وإقامتها على طاعة الله جَلَّوَعَلَا رجاءً منه وحده وخوفًا وطمعًا وحُسن إقبال عليه جلَّ في علاه، ومَن كان بالله أعرف؛ كان منه أخوف، ولفضله أرجى، وعن معصيته أبعد، وإلى طاعته أقرب كما قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وعندما يستقيم العبد على هذا الرَّجاء والخوف إلى أن يتوفَّاه الله ينال فضلًا عظيمًا وخيرًا عميمًا لا يعلمه إلَّا الله جلَّ في علاه؛ وليتأمَّل في هذا ما رواه التِّرمذيُّ وغيره عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ فَقَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» قَالَ: «**وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي**»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»[٢].

وروى التِّرمذيُّ وغيره عن سعد بن أبي وقَّاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ**

---

(١) رواه أحمد في الزُّهد (١٤٠٠).

(٢) رواه التِّرمذيُّ (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسَّنه الألبانيُّ.

لَهُ»[(١)]؛ وقد جمعت هذه الدَّعوة أمرين عظيمين: التَّوحيدَ والاستغفار؛ فإنَّ «**لا إله إلَّا الله**» كلمة التَّوحيد، وقوله: «**إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**» اعترافٌ بالذَّنب متضمِّن طلب الغفران.

والتَّوحيد يفتح للعبد أبواب الرَّجاء في الدُّنيا والآخرة، والاستغفار يغلق عن العبد أبواب الشُّرور؛ وما أعظم أن يكون العبد في هذه الحياة مكثرًا من كلمة التَّوحيد «**لا إله إلَّا الله**» لتفتح له أبواب الخيرات في الدُّنيا والآخرة، فإنَّها مفتاح كلِّ خير وفضيلة، وأن يكثِر من كلمة «**استغفر الله**»؛ لتكون مغلقة عنه أبواب الشُّرور، وطوبى لمَن وجد في صحيفته يوم القيامة استغفارًا كثيرًا.

غفر الله ذنوبنا وأصلح قلوبنا، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه التِّرمذيُّ (٣٥٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ.